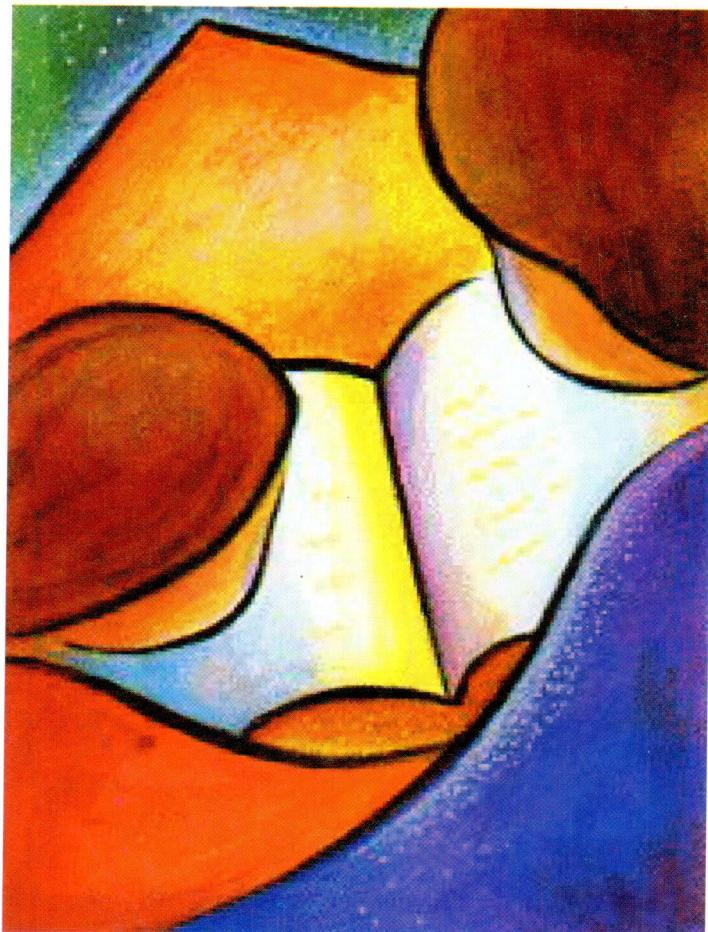


علم الاجتماع المدرسي

بنيوية الظاهرة المدرسية

ووظيفتها الاجتماعية



د. علي جاسم الشهاب

د. علي أسعد وطفة

مراجعات وعروض الكتب

علم الاجتماع المدرسي

تأليف: د. علي أسعد وطفة، ود. علي جاسم الشهاب
الناشر: مكتبة الطالب الجامعي، الكويت (ط١)

سنة النشر: ٢٠٠٤ م

عرض وتعليق: أ. حواس سلمان محمود*

(*) كاتب وباحث، القامشلي - سوريا.

يمثل الكتاب الذي بين يدينا محاولة علمية في تقديم علم الاجتماع المدرسي عبر منظومة القضايا والأبحاث والدراسات التي يبادرها هذا الاختصاص، وقد أراد الباحثان لهذا الكتاب أن يكون مستوفياً لأهم القضايا التي يطرحها علم الاجتماع التربوي في مجال المؤسسة المدرسية وهذا العمل يفي بحاجة القارئ العربي إلى استطلاع هذا القطاع البارز من المعرفة التربوية الناشطة في ميدان المدرسة، وذلك في ٣١٣ صفحة من القطع الكبير.

البنية السلوكية والتفاعل التربوي في المدرسة:

في إطار التفاعل الذي يقوم بين المعلم والتלמיד يسترشد المعلم بمنظومة من المعايير المهنية في توجيه سلوكه وأداء دوره كمعلم، وبالتالي فإن التلاميذ يستجيبون سلوكياً وفق منظومة أخرى من المعايير تحدها لهم مراكزهم بوصفهم طلاباً في المدرسة، فعندما يقوم المدرس بدور التعليم يستجيب الطلاب سلوكياً بدور المتعلمين، وعندما يقوم المعلم بدور الفاحص يستجيب التلاميذ بدور المفحوص. إن مراقبة السلوك الذي يجري داخل القاعة خلال فترة من الزمن يتبع الكشف عن أشياء هامة: ومنها أن المعلمين والتلاميذ لا يتصرفون دائماً وفقاً للطريقة نفسها التي تحدها لهم المعايير السلوكية المطلوبة حيث يلاحظ أن لكل تلميذ أفكاره الخاصة في نمط الاستجابة لسلوك المعلم، وأن كل طالب يحدد دوره بطريقته الخاصة التي قد يتفق فيها أو يختلف مع الآخرين، ومثل هذه الأدوار أو الممارسات السلوكية الخاصة المضمرة والخفية تشكل جانباً من بنية المدرسة دون أن تظهر مباشرة بوضوح أو على السطح، وهذا يعني أن المدرسة لا تكون من السلوك الذي يمكن أن يظهر باللحظة فحسب وإنما هناك أنماط سلوكية مضمرة وهو السلوك المتوقع من الأفراد الذين يحتلون مركزاً ما خلال فترة زمنية ما. إن وصف المدرسة بأنها نظام من السلوك يعني أنها نظام يدير ويعزز بعض أنماط الفعل الإنساني المحدد الذي يظهر على شكل بنية سلوكية تتكرر يوماً بعد يوم، وبين المؤلفان ضمن هذه الفقرة أن المدرسة شبكة منظمة متفاعلة من السلوك أنها بنية سلوكية تحدها أدوار الفاعلين فيها

والمنتسبين إليها، ويعد التفاعل التربوي الذي يجري بين أفراد الجماعة المدرسية صورة حية للتفاعل الاجتماعي الذي يجري في إطار الحياة الاجتماعية. وتتجدر الإشارة إلى أن التفاعل التربوي المدرسي يتجدد بجملة من العوامل والشروط الموضوعة من أهمها:

- ١ - الفلسفة التربوية السائدة في المدرسة التي تتعلق بأهداف التعليم وغاياته ووظيفة المدرسة ومبادئ التربية الحديثة. وعندما تتعلق الفلسفة التربوية من مبادئ إنسانية في العمل التربوي وعندما ينظر إلى المدرسة بوصفها مرحلة حياتية هامة في حياة الأطفال وأن مهمة المدرسة ليست مجرد تلقين المعلومات فإن التفاعل التربوي سيترجم إلى عطاء متواصل في مجال الفعل الإبداعي التربوي.
- ٢ - مدى مرونة الانظمة الإدارية السائدة حيث يلاحظ أن التصلب الإداري ينعكس سلباً على مستوى إنتاجية المدرسة ويكرس انخفاضاً في مستوى التفاعلات التربوية الجارية بين أطرافها وعناصرها المكونة لها.
- ٣ - تمارس صيغة الأهداف التربوية الخاصة بالمدرسة دوراً كبيراً في تحديد مستوى العلاقات التربوية السائدة وهي في الوقت الذي يتميز فيه بالمرونة تجعل من تحقيق التفاعل التربوي إمكانية متحركة.
- ٤ - بالقدر الذي تكون فيه المناهج متكيفة مع تجارب الحياة الخاصة بالתלמיד فإن ذلك يسهم في دفع العلاقات التربوية القائمة نحو طور تربوي أفضل.
- ٥ - أهمية العلاقة بين الوسط الاجتماعي والوسط المدرسي التي تتم عبر مجالس الأولياء والمعلمين، أن مشاركة ذوي التلاميذ في العمل المدرسي من شأنه دفع وتيرة الفعل التربوي نحو آفاقه المنشودة.

ت خوم الن ظام المدرسي ل لمدرسة بوصوفها بنية سلوكية:

يجب القول حسب (مؤلفي الكتاب) إن بعض الجماعات التي تنتمي إلى الوسط الخارجي للمدرسة (الأولياء) يمكن أن تشكل حقاً جزءاً من بنيتها

الوظيفية، وعلى الأقل يجب أن يتم الاعتراف بأن بعض الآباء يقومون بدور مساعدة المعلم فيما يتعلق بأطفالهم، وبالتالي فإن هذه الجماعات التي تتكون من التلاميذ والآباء هي مجموعات أولية تتبع إلى المدرسة. وبالاستاد إلى ذلك فإن هناك جانبًا حيوياً من المؤسسة المدرسية لا يخضع لمراقبتها المباشرة أو سيطرتها.

وظائف المدرسة:

مما لا شك فيه أن المدرسة تمارس وظائف اجتماعية وتربوية متعددة وتتبادر هذه الوظائف بتباين المجتمعات و بتباين المراحل التاريخية المختلفة، ويمكن لنا أن نميز عدداً من المحاور الأساسية لوظائفها المجتمعية:

١ - **التنشئة الاجتماعية:** تعد المدرسة بحق الوكالة الاجتماعية الثانية بعد الأسرة للقيام بوظيفة التنشئة الاجتماعية للأطفال والناشئة حيث تقوم بإعداد الأجيال الجديدة روحياً ومعرفياً وسلوكياً وبدنياً وأخلاقياً ومهنياً، وذلك من أجل أن تتحقق للأفراد اكتساب عضوية الجماعة والمساهمة في نشاطات الحياة الاجتماعية المختلفة.

٢ - **الوظيفة السياسية:** يرسم كل مجتمع السياسة التي يرتضيها لنفسه والتي تحقق له غاياته وأهدافه في مختلف مجالات الحياة و ميادينها، والسياحة هي أداة المجتمع في توجيه الطاقات والفعاليات المجتمعية نحو أهداف منشودة ومحددة وهي وبالتالي معنية بتحقيق التوازن بين جوانب الحياة الاجتماعية ومؤسساتها المختلفة.

وتقوم بين المؤسسة المدرسية والمؤسسة السياسية علاقات جدلية عميقة وجوهرية، فالمؤسسة السياسية معنية بتحديد أهداف التربية وغاياتها وبحديد استراتيجيات العمل المدرسي ومناهجه لتحقيق أغراض سياسية اجتماعية قريبة أو بعيدة المدى. وغالباً ما ينظر إلى المدرسة بوصفها حلقة وسيطة بين العائلة والدولة لتحقيق الغايات الاجتماعية التي حددها المجتمع لنفسه.

٣ - **الوظيفة الاقتصادية:** يكمن العامل الاقتصادي في أصل نشوء المدرسة وخاصة في مرحلة الثورة الصناعية الأولى التي تطلب وجود يد عاملة ماهرة قادرة على استخدام التكنولوجيا الحديثة المتقدمة، وكان على المدرسة في هذه المرحلة أن تلبي حاجات الصناعة النامية من اليد العاملة المؤهلة، وما تزال المدرسة حتى يومنا هذا تسعى إلى تلبية احتياجات التكنولوجيا الحديثة من فنيين وخبراء وعلماء وأيدي عاملة وبدأت لاحقاً ترتبط تدريجياً وعلى نحو عميق مع المؤسسات الاقتصادية الإنتاجية ويتجسد ذلك في تأسيس المدارس الفنية والمهنية التي تتصل بشكل مباشر بعجلة الإنتاج الصناعي المتتطور، وتلعب المدرسة دوراً هاماً في زيادة الدخل القومي وتحقيق نمو اقتصادي في البلدان المتقدمة والنامية على حد سواء.

٤ - **الوظيفة الثقافية للمدرسة:** تعد الوظيفة الثقافية من أهم الوظائف التي تتولاها المؤسسات المدرسية، فالمدرسة تسعى إلى تحقيق التواصل والتجانس الثقافيين في إطار المجتمع الواسع، وتأخذ وظيفة المدرسة الثقافية أهمية متزايدة وملحة كلما ازدادت حدة التناقضات الثقافية والاجتماعية بين الثقافات الفرعية القائمة في إطار المجتمع الواحد كالتناقضات الاجتماعية والعرقية والجغرافية، وهي التناقضات التي يمكن أن تشكل عامل كبح يعيق تحقيق وحدة المجتمع السياسية ومدى تواصله الثقافي وتفاعلاته الاقتصادية.

السلطة المدرسية:

تعني السلطة في صيغتها الأدبية القدرة على التأثير والإخضاع. وبمقتضى هذا التعريف فإن طرفاً اجتماعياً ما، يستطيع أن يؤثر على طرف آخر ويحضنه بتأثير القوة التي يمتلكها ويتأسس على ذلك أن السلطة هي الوضعية التي تتيح لشخص معين أو هيئة اجتماعية محددة أن تمتلك القوة لتسخير وتنظيم حياة الجماعة أو المجتمع بصورة غائية، والسلطة غالباً ما تكون

شرعية في نظر هؤلاء الذين يخضعون لها، وذلك لأنها في جوهرها صيغة قوة مشروعة يمارسها شخص أو جماعة لضبط حياة الجماعة وتوجيهها. ويبين (المؤلفان) أن السلطة الأخلاقية التي تخلو من مظاهر العنف والإكراه في آن واحد هي هذه التي تقوم كلياً على أساس من السمو الأخلاقي وهي تقتضي أن يقوم المربى باستيفاء شرطين أساسيين:

- ١ - إذ يجب على المربى أن يمتلك إرادة متماسكة وقوية في البداية وذلك لأن السلطة يجب أن تقوم على أساس من الثقة، والطفل لا يستطيع أن يمنح ثقته لمن يعتريه التردد في اتخاذ قراراته.
- ٢ - أما الشرط الأكثر أهمية فهو أن يحظى المربى الذي يريد أن يمنع الآخرين الإحساس بالثقة درجة عالية من الثقة بنفسه أولاً، ومثل ذلك الإحساس يجسد قوة لا يمكن لها أن تظهر إلى حيز الوجود إذا لم تكن موجودة فعلاً. ويشير المؤلفان إلى أنه في مجتمعات التسلط والثقافة القمع غالباً ما يكون سدنة التعليم من أهل التسلط بمعنى أن أغلب المعلمين والمدرسين ينزعون إلى ممارسة التسلط في فعلهم التربوي ويعمل المعلم السلطوي على التأثير في الطلاب بطريقتين هما:
 - أ - يحاول أن يوزع في نفوس الطلاب الروح السلطوية وذلك لأن الأطفال يتأثرون بالنماذج السلوكية لملئهم وأبائهم ويتمثلون أنماطهم السلوكية وتلك هي النتيجة التي يتوصل إليها باندروا في هذا السياق.
 - ب - تقليل فرص التفاعل بين الطلاب وخفض مستوى المبادرة ومن مواصفات شخصية المتسلط التعامل مع المطلقات فالكون مستقطب بين أبيض وأسود، بين جيد ورديء، ولذا فإن قبول الطلاب لعلوماته أمر لا يقبل المناقشة بالنسبة له، ومن هنا تض محل قدرته على تمية فردية طلابه وتعزيز قدراتهم وبعبارة أخرى تتضاءل فرص التفاعل التربوي الخلاق في داخل القاعة أو بين الطلاب بصورة عامة.

نحو تربية ديمقراطية:

وفي الفصل الخامس الذي بعنوان «من ديمقراطية المدرسة إلى الديمقراطية في المدرسة» يؤكد المؤلفان على ضرورة التربية الديمقراطية في المدرسة وباعتبار أن المسألة الديمقراطية التربوية تحتل مكاناً مركزاً بين القضايا الاجتماعية المعاصرة، وبحسب «المؤلفين» تقوم التربية الديمقراطية على المبادئ التالية:

- ١ - **مبدأ الحرية:** باعتبار الحرية هي المبدأ والخبر في التربية الديمقراطية ويأخذ هذا المبدأ صيغة متعددة تمثل في الحرية النفسية والحرية الجسدية والحرية العقلية.
- ٢ - **مبدأ الحب:** الحب حاجة إنسانية أصلية تضرب جذورها في العمق الإنساني وهي تشكل منطلقاً لنمو الفرد وازدهاره، وقد يُقال بالحب يحيا الإنسان. والحب عامل ازدهار وتكوين وصيروحة إنسانية، ومن دونه تصبح حياة الإنسان جحيناً لا يطاق تقتل فيه مكامن الإبداع والعطاء. والحب حاجة إنسانية تعانق الحرية وتتموّل بها وتنتافه مع كل صبغة القسر والإكراه. ومن هنا فإن التربية الديمقراطية تشتدّ الحب الشامل وتنميّه في قلوب الأطفال وتحفيظهم به بلا حدود فإنها تشكل الركن الأساسي وحجر الزاوية في أية تربية ديمقراطية خلاقة.
- ٣ - **مبدأ التجربة الذاتية للطفل:** تطلق التربية الديمقراطية من مبدأ التجربة الذاتية التي تؤكد أهمية النمو الذاتي الحر للطفل حيث يترتب على الأبناء أن يعتمدوا على تجربتهم الشخصية في بناء تصوراتهم وقيمهم وفعالياتهم على مبدأ المشاركة مع غيرهم من أفراد الأسرة في بناء التجربة الخلاقة والمبدعة.
- ٤ - **مبدأ الحوار:** يعد الحوار منطلق التجربة الديمقراطية في عملية التواصل التربوي، ويقوم هذا المبدأ على أساس من حرية النقد وإبداء الرأي بعيداً عن قيم الخجل والخوف والوجل والإرهاب ووفقاً لهذا

المبدأ يترتب على الأطفال أن يعلموا عن آرائهم وقيمهم وانتقاداتهم وأن يطروا أسئلتهم في أجواء حرجة متكاملة تدفع بهم إلى مزيد من النمو والعطاء نفسياً وعقلياً. ويشار إلى أن التجارب التربوية الأصيلة قد بينت أن الحوار بين أفراد الأسرة ينمّي ملكات الطفل الفكرية والعقلية والانفعالية. فالحوار هو العملية التي ينقل بها العقل الإنساني من حالة السكون إلى حالات النشاط التي تدفع به إلى النماء والتطور.

٥ - **مبدأ المسؤولية:** وهو المبدأ الذي يمنحك كل فرد إحساساً عميقاً بمسؤولياته الخاصة دونما قيود أو رقابة غير رقابة الضمير والقناعات الراسخة في النفس الإنسانية.

٦ - **الاحترام والتوازن:** تقوم علاقات التسلط التربوية على مبدأ الإكراه وعلاقات التبعية كالعلاقة بين السيد والمسود والغالب والمغلوب وبين القوي والضعيف، ويكون الاحترام في إطار هذه العلاقة موجهاً بين الطرف الأضعف إلى الأقوى ويتمثل في المبدأ التقليدي المعروف الذي ينص على احترام الكبير والعطاف على الصغير. وعلى خلاف ذلك كله تؤكد التربية الديمقراطية على أهمية الاحترام باتجاهاته المتوازنة والمتكافئة. والطفل ليس راشداً صغيراً كما يؤكّد العرف الديمقراطي فهو كيان متكامل جدير بكل احترام وتقدير.

٧ - **مبدأ الاستقلال:** تنطلق التربية الديمقراطية من مبدأ التربية الاستقلالية، وتربية الاستقلالية هي التربية التي تعمل على تربية الطفل وفقاً لمبدأ الاعتماد على الذات في حل مشكلاته وفي قضاء حاجاته وذلك بالقدر الذي تسمح له قدراته.

وبالإضافة إلى الموضوعات التي عرضنا لها، عالج المؤلفان قضيّاً وموضوعات تربوية هامة أخرى منها:

بين الأسرة والمدرسة، الانتماء الاجتماعي والتحصيل الدراسي، الاصطفاء التربوي، المدرسة إزاء التحديات الإعلامية.

ختاماً:

الكتاب يكتسب أهميته من تناوله موضوعات لم يتم تناولها من قبل في المكتبة التربوية العربية، وجاءت المعالجة مدعاة بالأساليب والمناهج والطرائق الحديثة في تناول الموضوعات التربوية. لقد تم التوغل في عمق المسائل التربوية بأسلوب حديث ومتقن وقدر على كشف العديد من الثغرات والنواقص في العملية التربوية، ويشكل إضافة هامة للمكتبة التربوية العربية.